والإبكـــار : من طلوع الفجر الثّاني إلى طلوع الشّمس. أو من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضّحى وخروج وقت الضّحى[1] أي من أوائل النّهار وأواخر اللّيل[2] .

ولقـــد آتينا موسى بن عمران الهدى والنّور، وأورثنا بني إسرائيل التّوراة الّتي فيها هـــدىً ونـــور وموعظةٌ لأولي العقول الرّاجحة. وكذلك آتيناك يا محمّد القرآن أشرف الكتـــب السّـــماويّة، ثمّ أورثنا هذا الكتاب العزيز الذين اصطفينا من عبادنا وهم أمّتك الإسلاميّة.

فاصبر يا محمّد كما صبر موسى وبقيّة أولي العزم من الرّسل وأنت يامحمّد زعيمهم، إنّ وعـــد الله تعالى لك بالنّصر لحقّ، كما نَصَرَ موسى عليه السّلام وقومه بني إسرائيل عـــلى فرعون وجنده. واسأل ربّك أن يغفر لك ذنبك. والمعروف أنّ المصطفى ﷺ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر بنصّ الآية الكريمة الثّانية من سورة الفتح، فالمراد أمّـــته عليه الصّلاة والسّلام. وقد كان عليه الصّلاة والسّلام يكثر من استغفار ربّه جلّ وعلا آناء اللّيل وأطراف النّهار، لأنّه عليه الصّلاة والسلام الأسوة الحسنة للأمة المحمّديّة. ويؤمـــر علـــيه الصـــلاة والسلام بأن يسبح بحمد ربّه عزّ وجلّ بالعشيّ وآخر النّهار، والإبكـــار وأوّل الـــنّهار، وأن يكثر من القول : سبحان الله وبحمده في كلّ الأوقات. والمعروف أن التّسبيح تنزيهٌ من النّقائص، وأنّ التّحميد تكثيرٌ من المحامد.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٠ .

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ١٤١ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إنّ الّذين يجادلون في آيات الله تعالى بغير برهانٍ من الله تعالى، وإنّ كفّار مكة الّذين يخاصمون في آيات القرآن الكريم الموحى بها إلى محمّد ﷺ وينازعون بالباطل ليبطلوا الحقّ من الله جلّ وعلا، ليس في صدورهم سوى الكبر والتّعالي والحسد للمصطفى ﷺ على الفضل الّذي خصّه الله تعالى به. وليس المشركون ببالغي ذلك الفضل لأنّ الفضل بيد الله تعالى يختص به من يشاء من عباده. والله تعالى ذو الفضل العظيم. وكان هذا الموقف من المشركين لأنّهم انساقوا وراء النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم. وإنّما تمكّن منهم الشّيطان الرّجيم لأنّهم لا يستعيذون بالله تعالى السّميع العليم منه. فاستعذ يا محمّد بالله تعالى، فإنّك الأسوة الحسنة لأمّتك، وإنّه عزّ وجلّ هو السّميع لكلّ قول، البصير بكلّ فعل.

وهؤلاء المشركون إنّما جادلوا في الحقّ بباطلهم لأنّهم لايؤمنون بالبعث بعد الموت. وهم لا يؤمنون بالبعث لأنّهم يستبعدون وجود القوّة القادرة على إعادة الحياة إلى الخلائق. والعجيب في الأمر أنّهم يقرّون بأنّ الله تعالى هو الخالق، أي مبدع الكون كلّه

وموجـــده مـــن العدم. والعجيب أنّهم يقرّون بوجود الكون من العدم ووجود الخلائق وينكرون عودة الحياة إلى الأموات يوم القيامة! إنّهم يقرّون بالإبداع وينكرون الإعادة، يقـــرّون بالأصعب في عُرْفنا نحن البشر، وينكرون الأسهل، علماً بأنّ الأمرين سواء في حقّ الذّات العليّة. ومشركو مكّة لا يكادون يعرفون أنّ خلق السّماوات والأرض أكبر مـــن خلـــق النّاس، ولا يكادون يعترفون بذلك، والقرآن الكريم ينّبه إلى هذه الحقيقة، ويـــريد أن يُنَـــبِّه إلى ما يترتّب عليها من أنّ تبديل السّماوات والأرض يوم القيامة غير السّـــماوات والأرض مـــن جنس الإعادة للخلق. فالله تعالى هو القادر على إعادة خلق السّـــماوات والأرض، كما أنه سبحانه هو القادر على إعادة خلق النّاس. فلماذا ينكر المشركون البعث؟ ولماذا يعطّل أكثر النّاس عقولهم ولا يستعملونها استعمالاً صحيحاً ؟

أمّا الباعث للقوم على إنكار البعث فهو عمى البصيرة. إنّه لا يستوي أعمى البصر والبصـــيرة، والمبصر والنّيّر البصيرة. كما أنّه لا يستوي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات، والّذين كفروا وعملوا السّيّئات، ولا يستوي أصحاب الجنّة وأصحاب النّار. وإنّ النّاس لا يكادون يتذكّرون إلاّ قليلاً.

ويعلن السّياق على رؤوس الأشهاد: إنّ السّاعة لآتيةٌ لاريب فيها ولا شكّ، فعليكم أيها النّاس جميعاً أن تؤمنوا وتعملوا صالحاً كي تدخلوا بإذن ربّكم جنّات النّعيم .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وقـــال ربكم أيّها المؤمنون ادعوني أستجب لكم وأخلصوا الدّعاء والعبادة لي . إنّ الّذيـــن يستكبرون عن عبادتي ويستنكفون عن دعائي، ويشركون بي في العبادة غيري سيدخلون جهنّم داخرين، ويصلون نارها صاغرين.

روى الإمـــام أحمد عن النّعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الدّعـــاء هـــو العـــبادة ثم قرأ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ وهكذا رواه التّرمذي والنّسائيّ وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وأبو داود وابن حبّان والحاكم [1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

فأنّى تؤفكون : فكيف تُصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان [2]

الله تعـــالى هـــو الّذي جعل لكم أيّها النّاس اللّيل لتسكنوا فيه بعد الحركة نهاراً، ولـــترتاحوا بعـــد التّعب، ولتهدأوا بعد الاضطراب. وجعل الله تعالى النهار مبصراً، أي تبصـــرون فيه الأشياء بسبب ضوء الشّمس والأحياء. وبذلك يكون إسناد الإبصار إلى الـــنهار مجاز. إن الله تعالى لذو فضل على النّاس ولكن أكثر النّاس لا يشكرون له نعمه العظيمة فيشركون معه في العبادة سواه.

---

[1] تفسير ابن كثير ٧ / ١٤٢ و ١٤٣ .

[2] الجلالين .

ذلكم الّذي فعل كلّ ذلك هو الله تعالى ربّكم ربّ السّماوات والأرض ربّ العالمين، خالق كلّ شيء وموجده من العدم، لا إله إلاّ هو فلا تصلح العبادة إلاّ له سبحانه فكيف تُصْرَفون أيّها النّاس عن الإيمان مع وضوح البرهان.

وكما صُرِف مشركو مكّة عن توحيد الله تعالى إلى عبادة الأوثان والأصنام، صُرف السّابقون الّذين كانوا بآيات الله تعالى يجحدون، ولرسل الله تعالى يكذّبون.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

الله تعالى الّذي يستحقّ أن يُعْبَدَ وحده دون سواه هو الذي جعل لكم أيّها النّاس الأرض موضع استقرار ومكان سُكنى، وجعل السّماء سقفاً عالياً محفوظاً مرفوعاً بيد القدرة الإلهية، فلا علاقة من فوق، ولا دعامة من تحت، وصوّركم أيّها الناس فأحسن صوركم، وخلقكم في أكمل هيئة وأحسن تقويم، ورزقكم من الطيّبات، طعاماً هنيئاً، وشراباً مريئاً. ذلكم الله المستحق أن يفرد بالعبادة هو ربّكم الّذي رباكم بنعمه، ونشّأكم بآلائه، فتكاثر خير الله تعالى ربّ العالمين ربّ كلّ شيءٍ وحيّ.

إنه هو الحيّ الّذي لا يموت، الّذي لا إله إلاّ هو ولا معبود بحقٍ سواه، فادعوه مخلصين له الدّين، واعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً. الثّناء كلّه لله تعالى ربّ العالمين، الّذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كلّه، سبحانه وتعالى.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

ثمّ من نطفة : النّطفة الماء الصّافي . ويعبر بها عن ماء الرّجل[1] .

ثمّ من علقة : هي القطعة من الدّم[2] .

ثمّ لتبلغوا أشدّكم : ثمّ لتبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم بعمركم[3] وتكامل قوّتكم من الثّلاثين سنة إلى الأربعين[4] .

ثم لتكونوا شيوخاً : يقال لمن طعن في السّنّ الشّيخ[5].

ومنكم من يتوفّى من قبل : من قبل أن يبلغ الشّيخوخة[6].

قل يا محمّد لمشركي قومك إنّي نهيت أن أعبد الّذين تعبدون من دون الله تعالى لّما جاءني الآيات البيّنات والمعجزات الواضحات من ربّي عزّ وجلّ، وأمرت أن أخلص العبادة لله تعالى ربّ العالمين.

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " نطف " ٢ / ٦٤١ .

[2] تفسير الطّبري ١٨ / ٨ .

[3] تفسير الطّبري ١٧ / ٩١ .

[4] الجلالين .

[5] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " شيخ " ١ / ٣٥٦ .

[6] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٤ .

ومن آيات الله تعالى البيّنات الدّالاّت على القدرة المطلقة للذّات العليّة والّتي أغفلها المشـــركون قصداً أو غفلة خلق الله تعالى لنا. إنّ الله تعالى هو الّذي خلقنا من تراب في هيـــئة أبيـــنا آدم عليه السّلام، ثمّ من ماءٍ للرّجل صافٍ يُصبّ في قرارٍ مكينٍ هو رحم المـــرأة، ثمّ من قطعة لحم، إلى أن يخرجنا عزّ وجلّ بعد تمام الحمل من بطون أمّهاتنا في أحســـن تقويم، فتبارك الله تعالى أحسن الخالقين. ونظلّ ننمو بنعمة الله تعالى حتّى نبلغ مرحلة الأشدّ بين الثّلاثين والأربعين، وكمال العقل وتمام القوّة. ثمّ نكون شيوخاً طاعنين في السّـــنّ وربّمـــا بلغ بعضنا أرذل العمر بمشيئته عزّ وجلّ. ومنا من يتوفّى من قبل، في بطن أمّه أو خارج البطن، في سنٍ متقدّمة أو متأخرة بين ذلك. كلّ ذلك إنّما يتمّ بعلم الله تعـــالى وإرادته. ثمّ نبلغ أجلاً مسمّى نُتَوَفّى فيه ولا يستطيع أحدٌ أن يتقدّم ساعةً عنه أو يـــتأخّر ساعة عنه. ولعلّنا نتفكّر في هذه الآيات البيّنات الدّالاّت على قدرة الله تعالى كـــي نفرد الله تعالى بالعبادة، ونسلم لله تعالى ربّ العالمين. ويُلاحظ أنّ كلّ ثلاثة معانٍ في المجموعات الثلاث من وادٍ واحد.

إنّ الله تعـــالى هو الّذي يحيى من أراد له الحياة ويميت من أراد لـــه الوفاة، لا رادّ لقضـــائه، ولا معقّـــب لحكمه سبحانه فإذا قضى أمراً وأراد شيئاً فإنّما يقول لـــه كن فيكون. إنّ كلّ هذه المعجزات البليغات تحمل كلّ من لديه مُسْكَةٌ من عقل، وأثارةٌ من علم، على أن يخلص العبادة لله تعالى وحده دون سواه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

إذ الأغـــلال في أعناقهم : الأغلال جمع غُلّ. وهو الحديدة الّتي تجمع يد الأسير إلى عنقه[١] .

في الحميم : في الماء الشديد الحرارة[٢] .

ثمّ في النّار يُسجرون : ثمّ في نار جهنّم يحرقون. يقول : تُسْجَر بهم جهنّم أي توقد بهم[٣] .

ضلّوا عنّا : ذهبوا فلم ينفعونا[٤] .

---

[١] لسان العرب : " غلّ " .

[٢] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " حمم " ١ / ١٧١ .

[٣] تفسير الطبري ٢٤ / ٥٥ .

[٤] تفسير ابن كثير ٧ / ١٤٧ .

ذلكـــم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تمرحون: هذا الّذي فعلنا بكـــم أيهـــا القـــوم اليوم من تعذيبنا لكم العذاب الّذي أنتم فيه بفرحكم الّذي كنتم تفرحونه في الدّنيا بغير ما أذن الله لكم به من الباطل والمعاصي، وبمرحكم فيها. والمرح هو الأشر والبطر[1].

ادخلوا أبواب جهنّم : السّبعة[2] .

ألم تـــر يـــا محمّـــد إلى الّذين يجادلون في آيات الله تعالى البيّنات من قومك كيف يُصْـــرَفون عن الحقّ إلى باطلهم. إنّهم الّذين كذّبوا بالقرآن الكريم. وبما أرسلنا به رسلنا أجمعـــين مـــن توحيدٍ لله تعالى وإفرادٍ له عزّ وجلّ بالعبادة والإيمان بالبعث والعمل ليوم القيامة، فسوف يعلم أولئك المشركون حقيقة خسرانهم يوم القيامة، حين تكون الأغلال في أعناقهم، وهي بطبعها تشدّ الأيدي إلى الأعناق شدّاً عنيفاً، وحين تكون السّلاسل في أرجلهم[3] يسحبون منها في الماء الشّديد الحرارة ثمّ يُقْذَفون في نار جهنم كي توقد بهم النّار ويكونوا بمثابة الحطب لها. ثمّ يقال لأولئك المشركين أين الأصنام والأوثان والآلهة المزعومة الّتي كنتم تشركونها مع الله تعالى في العبادة كي تنقذكم؟ قالوا : ذهبوا عنا فلم ينفعونا، بل لم نكن نعبد من دون الله تعالى شيئاً. وإنّهم لكاذبون. وكما أضلّ الله تعالى الكافرين السّابقين وزادهم عمىً إلى عماهم ، يضلّ الله تعالى الكافرين اللاّحقين الّذين يصرّون على الكفر والتّكذيب والجحود.

ذلكم العذاب الّذي أنتم فيه في أعماق الجحيم بسبب أنكم كنتم تفرحون في الحياة الدّنيا بالباطل وبكلّ ما يغضب الله تعالى، وبما كنتم تمرحون بباعث الأشر والبطر والكبر والتّعالي والغطرسة.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٦ .

[2] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٦ .

[3] الجلالين .

ادخلـــوا أيّهـــا المشركون أبواب جهنّم السّبعة خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين جهنّم، وبئس مسكن المشركين النّار وبئس القرار .

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

فإمّا نريّنك بعض الذّي نعدهم : جواب الشرط محذوف أي فذاك أمرٌ بيّن[1]

وخســـر هنالك المبطلون : وهلك هنالك الّذين أبطلوا في قيلهم الكذب وافترائهم على الله وادّعائهم له شريكا[2] والّذين يبطلون الحقّ[3] والباطل نقيض الحقّ[4] .

فاصبر يا محمّد إنّ وعد الله تعالى لك بالنّصر ولأعدائك بالهزيمة لحقّ. فإمّا نريّنك في حياتك بعض الّذي نعدهم من العذاب فذاك أمرٌ بيّن، أو نتوفّينّك قبل أخذهم بالعذاب فإلينا يُرْجعون بالموت وسوف نجازيهم.

ولقد أرسلنا يا محمّد رسلاً من قبلك. منهم من قصصنا عليك شيئاً من ذكرهم في القرآن الكريم، ومنهم من لم نقصص عليك شيئاً من ذكرهم. وكلّهم قد نصرناهم على

---

(1) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١ / ٢٢٨ .

(2) تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٧ .

(3) مفردات الراغب الأصفهاني : " بطل " ١ / ٦٥ .

(4) مفردات الراغب الأصفهاني : " بطل " ١ / ٦٤ .

أعدائهم أعداء الله تعالى. وإنّ النّصر حليفك يا محمّد أخيراً. وما كان لرسولٍ نرسله أن يأتي بمعجزة إلاّ بإذن الله تعالى وبأمره. وقد جعلنا هذا الكتاب العزيز كبرى معجزاتك. ولم نلتفت لطلب قومك منك أن تأتيهم بمعجزاتٍ حسّيّة اقترحوها، لأنّ القوم متعنّتون ولا تنقصهم الحجّة. فإذا جاء أمر الله تعالى بالحساب وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين قُضِي بالعدل، ونجح يوم القيامة المؤمنون الّذين أيّدوا الحقّ، وخسر الكافرون الّذين أيّدوا الباطل، وأرادوا إبطال الحقّ.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولتبلغوا عليها حاجةً في صدوركم: ولتبلغوا بالحمولة على بعضها، وذلك الإبل، حاجة في صدوركم لم تكونوا بالغيها لولا هي إلاّ بشق أنفسكم[1] .

الله تعالى هو الّذي خلق الأنعام من إبل وبقرٍ وغنم، وجعل لنا ما نركب منها وهي الإبل، وما نأكل منها ونشرب وهي الإبل والبقر والغنم. ولنا فيها منافع كثيرة كأن نعمل من أصواف الضّأن ، ووبر الإبل ، وشعر الغنم ملابس وفَرْشاً وأثاثاً وزينة. ولنبلغ على الإبل بأثقالنا حاجةً في صدورنا، وغاية في نفوسنا، لم نكن لنبلغها بدون الإبل إلاّ بالكدّ الشّديد، والتّعب الأكيد، حتّى ليكاد يذهب شقّ أنفسنا وأبداننا، لولا فضل الله

---

[1] تفسير الطبري ٢٤ / ٥٧ .

تعـــالى علينا بما يحملنا ويحمل أثقالنا. وعلى الإبل نحن نُحْمَل في البّر، وعلى السُّفن نحن نُحْمَل في البحر. فسبحان الله تعالى الّذي سخّر لنا كلّ هذا.

والله سبحانه وتعالى يُري النّاس آياته البيّنات في أنفسهم وفي الآفاق وفي كلّ شيءٍ بقصـــد أن يســـتدلوا بها على الله تعالى الواحد كي يفردوه بالعبادة. فأيّ تلك الآيات البيّنات تستطيعون أيها الجاحدون أن تنكروا وهي أوضح من الشمس؟

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فـــلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم: فرحوا جهلاً منهم بما عندهم من العلم وقالوا لن نبعث ولن يعذّبنا الله[1] .

أعجز كفّار مكةّ فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم مـــن المكذّبين رسل الله تعالى إليهم؟ كانوا أكثر من كفّار مكة عدداً ، وأشدّ منهم قوةً وســـنداً، وأكثر منهم آثاراً في الأرض، من القصور المشيدة، والمصانع العديدة فما أغنى

---

[1] تفسير الطّبري ٢٤ / ٥٨ .

عـــنهم كـــلّ ذلك، وما صرف عنهم عذاب الله تعالى حينما حلّ بهم، بسبب ما كانوا يأتون من آثام، ويرتكبون من خطايا.

فـــلمّا جـــاءت المشركين رسل الله تعالى إليهم بالمعجزات القاهرات الدّالاّت على صـــدقهم، فرح المشركون بما عندهم من علمٍ زائف، بأن الله تعالى لا يرسل رسلاً، ولا يعذّب بعد الموت أحداً، لأنه ليس ثمّة بعثٌ ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء. وتجاه هذا الإصرار على الكفر والعناد حلّ بهم ما كانوا يستهزئون به من عذاب الله تعالى .

فلّمـــا رأى المشركون بأس الله تعالى قد حلّ بساحتهم، وعذابه قد نزل بهم، قالوا وقـــتها آمنّا بالله تعالى وحده لا شريك له، وكفرنا بما كنّا مشركين به من آلهة مزعومة فلم يك ينفعهم إيمانهم بعد فوات الأوان، ولم يك يفيدهم توحيد الله تعالى لّما رأوا بأس الله تعالى قد نزل بساحتهم. هذه هي سنة الله تعالى التي مضت بالمكذّبين السّابقين . لا يـــنفعهم إيمـــانهم إذا حلّ بهم العذاب، ونزل بهم العقاب وخسر آنذاك الكافرون، كما كانوا هم الخاسرين قبل ذلك في كلّ زمانٍ ومكان [1].

---

[1] استثنى الحقّ جلّ وعلا قوم يونس عليه السلام على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الثّامنة والتّسعون من سورة يونس.

تعقيب :

نود أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١- سورة غافر من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على المصطفى ﷺ قبل الهجرة[١].

٢- تسمّى السّورة الكريمة كذلك حم المؤمن أو المؤمن[٢] .

٣- عدد آيات السّورة الكريمة خمسٌ وثمانون آية. وعدد كلماتها ألفٌ ومائةٌ وتسع وتسعون كلمة. وعدد حروفها أربعة آلاف وتسعمائة وسبعون حرفاً[٣].

٤- سورة غافر أولى سور آل حم السّبع. وهي مرتّبةٌ في المصحف الشّريف وفق ترتيب نزولها. وهذه السّور السّبع هي سورة غافر أو حم المؤمن ، سورة فصّلت أو حم السّجدة، وسورة الشورى أو : ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ وسورة حم الزّخرف، وسورة الدّخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف[٤] .

٥- سمّيت السّورة الكريمة غافر لقول الحق جلّ وعلا في الآية الكريمة الثالثة : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾ وسمّيت المؤمن لمجيء لفظ : " مؤمن " في الآية الكريمة الثامنة والعشرين في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ

---

[١] الإتقان ١ / ٤٣ وتفسير ابن كثير ٧ / ١١٦ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٤ / ٢٢ مطبوع بهامش تفسير الطّبري.

[٢] الإتقان ١/ ٤٣ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٤ / ٢٢ وتفسير الطّبري ٢٤ / ٢٦ وفتح الباري٨ / ٥٥٤.

[٣] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٤ / ٢٢ .

[٤] انظر الإتقان ١ / ٤٣ .

يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

٦- سورة غافر التي تبدأ بالحرفين المقطّعين : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ ﴾ يجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم كسائر السّور الكريمات الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة. ويجيء الانتصار للقرآن الكريم على الفور . قال تعالى[1] ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ والقرآن الكريم أحد موضوعات السّورة الكريمة، وقد جاء الحديث عنه في مجموعةٍ من الآيات الكريمات . إنّ الّذين يجادلون في آي القرآن الكريم هم الكافرون . قال تعالى[2] ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ وهم يجادلون بباعث الكبر والحسد للنّبيّ ﷺ على الفضل الّذي خصّه الله تعالى به، وهم لن يبلغوا شيئاً من ذلك الفضل. قال تعالى [3] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ والقرآن الكريم يدعو إلى توحيد الله تعالى. والتوحيد أهم أهداف القرآن الكريم . قال تعالى [4] : ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ

---

[1] سورة غافر ١ و ٢ .

[2] سورة غافر ٤ .

[3] سورة غافر ٥٦ .

[4] سورة غافر ٦٦ .

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وهؤلاء الّذين يجادلون في آيات الله تعالى قد صُرِفوا عن الحقّ على الباطل. قال تعالى [1] : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ والله تعالى قد قصّ في القرآن الكريم من قصص بعض النّبيّين على النّبيّ ﷺ لتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام والله تعالى قد خصّه علية الصلاة والسلام بأشرف الكتب السّماوية كبرى معجزاته ﷺ قال تعالى [2] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

٧- سورة غافر شأنها شأن المكّيّ من القرآن الكريم الّذي يُعْنى بأسس العقيدة من حثٍّ على التّوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى والإيمان بالبعث والعمل ليوم القيامة وتصديق الرّسول الكريم ﷺ والقرآن العظيم. وما إلى ذلك. وقد يشترك في الآية الكريمة أو الآيات الكريمات أكثر من قضيّة.

٨- من الآيات الكريمات الّتي تشير إلى قضية التّوحيد وتحث على إفراد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده دون سواه قوله تعالى [3] ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ وقوله

---

[1] سورة غافر ٦٩ و ٧٠ .

[2] سورة غافر ٧٨ .

[3] سورة غافر ٣ .

تعالى[1]: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ وقوله تعالى[2] ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله تعالى[4]: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ وقوله تعالى[5]: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ وقوله تعالى[6]: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ وقوله تعالى[7]: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ

---

[1] سورة غافر ١٢ .

[2] سورة غافر ١٤ – ١٦ .

[3] سورة غافر ٢٨ .

[4] سورة غافر ٤١ و ٤٢ .

[5] سورة غافر ٤٩ .

[6] سورة غافر ٥٥ .

[7] سورة غافر ٦٠ .

لَكُمُ ٱلَّيْلَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وقوله تعالى [1] : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقوله تعالى [2] : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وقوله تعالى [3] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

٩- من موضوعات السّورة الكريمة تسلية المصطفى ﷺ في هذه الفترة المكّيّة الّتي كان المشركون يسومون فيها المؤمنين الخسف. بل إنهم تطاولوا على شخص المصطفى ﷺ على نحو ما تبيّن في تفسير الآية الكريمة الثّامنة والعشرين. ومن الآيات الكريمات في التسلية قوله تعالى [4] : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ ومن آيات التّسلية

---

[1] سورة غافر ٦٢ .

[2] سورة غافر ٦٥ و ٦٦ .

[3] سورة غافر ٦٨ .

[4] سورة غافر ٤ – ٦ .

للمصطفى ﷺ والمؤمنين الآيات الكريمات الّتي تتحدّث عن موسى عليه السّلام ومؤمن آل فرعون من الآية الكريمة الثالثة والعشرين إلى الآية الكريمة السّادسة والأربعين، أي زهاء ربع السّورة الكريمة. ثمّ جاءت الإشارة إلى موسى عليه السّلام وبني إسرائيل في الآيتين الكريمتين الثّالثة والخمسين والرّابعة والخمسين. وكما نجّى الله تعالى موسى عليه السّلام وقومه بني إسرائيل من فرعون وملئه نجى مؤمن آل فرعون. وفي نصر الله تعالى مؤمن آل فرعون بشارة بالنّصر للمؤمنين قبل الهجرة. جاء في نصر الله تعالى مؤمن آل فرعون وحلول العذاب بفرعون وملئه قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ وجاء في الحث على الصّبر والإشارة إلى قصص النبيّين قوله تعالى[3] : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن

---

[1] سورة غافر ٤٥ و ٤٦ .

[2] سورة غافر ٥٣ – ٥٥ .

[3] سورة غافر ٧٧ و ٧٨ .

قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

١٠- من موضوعات السّورة الكريمة الإنذار. وللإنذار صورٌ مختلفة منها التّهديد المباشر بالعذاب الأليم،ومنها غير المباشر بالحثّ على أخذ العبرة من المكذّبين السّابقين الّذين أهلكهم الله تعالى، وسرت بذلك الأنباء ، أو مرّ المشركون بآثارهم. وكما يكون العذاب في الأولى يكون العذاب في الآخرة. ونحن إذا تدبّرنا الآيات في الإنذار بهذا المعنى نكاد ننتهي إلى أنّ هذا الموضوع يكاد يكون أكبر موضوعات السّورة الكريمة. إنّ كفّار مكّة مصرّون على كفرهم وعنادهم وإنكار البعث. ويشاركهم في هذه الصّفات السّيّئة سائر المشركين. ولّما كانت الكلمة قبل الهجرة للمشركين، فقّد اقتضى إنذارهم الإفاضة في الحديث وتقليب الكلام على وجوهه المختلفة. ومن الآيات الكريمات في هذه المعاني قوله تعالى[1] : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

[1] سورة غافر ٤ – ٦

[2] سورة غافر ١٠ – ١٢ .

يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ وقوله تعالى[1] : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ

---

[1] سورة غافر ١٧ – ٢٠ .

[2] سورة غافر ٤٧ – ٥٢ .

وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ وقوله تعالى[1] : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

ومن صور الإنذار غير المباشر الحثّ على أخذ العبرة من مصير المكذّبين السّابقين. قال تعالى [3] : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم

---

[1] سورة غافر ٥٨ – ٦٠ .

[2] سورة غافر ٦٩ – ٧٦ .

[3] سورة غافر ٢١ و ٢٢ .

مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ وقال تعالى [1] : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

١١- تجاه إصرار كفّار مكّة على شركهم وعنادهم تلفت السّورة الكريمة انتباه المشركين الفينة بعد الفينة إلى آيات الله تعالى المختلفة الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ كخلق السّماوات والأرض واللّيل والنّهار والنّاس والأنعام وما إلى ذلك قال تعالى [2] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ وقال تعالى [3] : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ وقال تعالى [4] : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

[1] سورة غافر ٨٢ – ٨٥ .

[2] سورة غافر ١٣ .

[3] سورة غافر ٥٧ .

[4] سورة غافر ٦١ – ٦٤ .

ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ وقال تعالى[1] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ
لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ
لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا
حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

١٢- وفي سورة غافر الكريمة تستغفر الملائكة الكرام للمؤمنين التّائبين المستقيمين وتدعو الله تعالى أن يقيهم عذاب جهنّم والسّيّئات وعواقبها الوخيمة وأن يدخلهم هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم جنّات النّعيم. ويصحّ أن يكون هذا الدّعاء في سورة غافر أطول دعاءٍ من هذا الجنس في القرآن الكريم. قال تعالى[3] : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً

---

[1] سورة غافر ٦٧ .
[2] سورة غافر ٧٩ – ٨١ .
[3] سورة غافر ٧ – ٩ .

وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

١٣- ليوم القيامة في سورة غافر أسماءٌ متعدّدة وصفاتٌ متنوّعة . إنّه يوم التّلاق. قال تعالى[١] : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ وهو يوم الآزفة لقربه.قال تعالى[٢]: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ ويوم الحساب . قال تعالى[٣] : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ويوم التّناد لكثرة نداء بعض النّاس بعضاً . قال تعالى[٤] : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ وهو يوم تقوم السّاعة . قال تعالى[٥] : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ وهو اليوم الّذي يقوم فيها الأشهاد من الملائكة

---

[١] سورة غافر ١٥ .
[٢] سورة غافر ١٨ .
[٣] سورة غافر ٢٧ .
[٤] سورة غافر ٣٢ .
[٥] سورة غافر ٤٦ .

والنّبيّـــين والمؤمنين بأنّ رسل الله تعالى قد بلغوا الرسالة وأدّوا الأمانـــة . قال تعالى[1] : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ وقد جاء في سورة غافر وحدها القول: ﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ والقول : ﴿ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ والقول : ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ والقول : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ .

١٤ — جاء الحديث عن مؤمن آل فرعون في الآيات الكريمات من الثامنة والعشرين إلى السادســـة والأربعـــين. ويكاد يكون الحديث هنا الأطول في القرآن عن واحدٍ من الأتباع المؤمنين.

ولهـــذا سميت السّورة بسورة المؤمن إضافةً إلى اسم غافر، والحقيقة أنّ هذا المؤمن بموســـى عليه السلام يصح أن يكون نموذجاً للّداعية المؤمن . واللطيف في الأمر أنّ الله ســـبحانه وتعالى قد أنطق هذا الرّجل بما كان يريد موسى عليه السّلام أن يقوله. علماً بأنّ في لسان موسى عليه السلام عقدة، ونعتقد أنّها ليست في لسان هذا الرجل المؤمن. وإنّ انطـــلاق لسان هذا المؤمن مزيد فضلٍ من الله تعالى على موسى عليه السّلام الذي سخر الله تعالى لـــه هذا الرجل المؤمن الناطق باسمه عليه السلام، القادر بفضل الله تعالى عـــلى أن يقول ، بسبب قرابته من فرعون الطّاغية، الشيء الذي لا يستطيع موسى عليه السلام أن يقوله.

وهذا الرجل حكيم ، فهو يكتم إيمانه ، وصاحب فكرٍ نيّر، وكلامٍ لطيفٍ ومنطقٍ عـــذب . وهو رجلٌ مؤمن ، يؤمن بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، وبالجنة والنار، وبموسى عليه السلام ، وبالقدرة المطلقة للذّات العليّة في الأولى والآخرة، وبعجز الآلة المزعومة ،

---

[1] سورة غافر ٥١ .

الّتي ليس لها قدرةٌ في الدنيا والآخرة على إجابة من دعاها ، وبهوان تلك الآلهة ، وفي مقدمتها فرعون الطّاغية إلى غير ذلك من بشائر الإيمان ودلائل اليقين . وإذا كان الرّجل المؤمن يكتم إيمانه أوّل الأمر ، فكأنّه في آخر الأمر قد أعلنه على رؤوس الأشهاد وأمام فرعون الطّاغية وملئه .

وقد فوّض المؤمن أمره لله تعالى وتوكّل عليه حقّ التوكل فنجّاه الله تعالى من فرعون وملئه كما نجّى موسى عليه السلام وبنى إسرائيل، وحلّ بفرعون وآله سوء العذاب في الدنيا والآخرة.

وهذا الرجل المؤمن إن كان أوّل الأمر ، بقصد عدم إثارة حفيظة القوم ضدّه وبخاصّة فرعون الطّاغية ، لم يقطع بكذب موسى عليه السّلام أو صدقه، فإنّه إثر موقف فرعون المتميّع الذي يُفهم من القول على لسانه : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ كأنّه قد صرّح بصدق موسى عليه السّلام ، إنّه يحّذرهم سنة الله في الطّاغين أمثالهم كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود والّذين من بعدهم. كما أنّه يحذرهم يوم القيامة الذي يتجاهلونه ممالأةً لفرعون الطّاغية ، ويشير إلى أنّ مناوأة رسول الله تعالى هو دأبهم ودأب آبائهم ، إنهم يقفون اليوم من موسى عليه السلام موقف أجدادهم من يوسف عليه السّلام ، وينصّ على تمنّي آبائهم ألاّ يبعث الله تعالى رسولاً بعد يوسف عليه السّلام ، رغم مجيئه عليه السّلام بالآيات البيّنات ومجيء موسى عليه السّلام بها.

وتجاه تمادي فرعون في استخفافه بقومه وذلك بطلبه من وزيره هامان الباغي أن يبنى له بناءً عالياً كي يطّلع إلى إله موسى عليه السّلام الذي يقول إنّه أرسله ويزعم فرعون أنّ موسى عليه السلام كاذبٌ في ادعائه ، تجاه تمادي فرعون في استخفافه بقومه يعلن المؤمن أنّ على القوم أن يتّبعوه هو كي يهديهم سبيل الرشاد. واتّباع قومه له اتّباع

في الحقيقة لموسى عليه السّلام ، وانصرافٌ عن فرعون الذي تحوّل مذكّراً يعظ قومه ويقودهم إلى مهاوي الرّدى.

إنّ المؤمن يتحوّل داعياً إلى الله تعالى ، مخلصاً في دعوته ، باذلاً روحه رخيصةً في سبيل الله تعالى . إنّ الحياة الدّنيا دار الغرور، وإن الآخرة هي القرار ، في الجنة أو النار إنّ عمل السّيّئات ، وبخاصة الشرك، يقود إلى النّار وبئس القرار، وإنّ عمل الصّالحات ، يقود إلى الجنّة التي يرزقون فيها بغير حساب.

ولا يكاد العجب ينتهي من المنافقين الذين يعلمون صدق الرّجل المؤمن بموسى عليه السلام وكذب فرعون الطّاغية حينما يدعون المؤمن إلى ترك اتّباع موسى عليه السّلام واتّباع فرعون الطّاغية ، أي دعوتهم له إلى النّار . إنّه يدعوهم إلى النّجاة من النّار ، وإلى العزيز الغفّار ، وهم يدعونه إلى النّار ، وإلى عبادة الآلهة العاجزة ، وفي مقدّمتها فرعون الطّاغية.

ويهدّد المؤمن فرعون وملأه بالقول: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ويفوض أمره إلى الله تعالى البصير بالعبادة، الذي وقاه شرورهم ، وردّ كيدهم في نحورهم.

وهكذا يتبيّن أنّنا حقّاً أمام رجلٍ مؤمن يصحّ أن يقال عنه إنه مثال الدّاعية المخلص لدينه واتباع الرّسول في القرآن الكريم.

١٥- جاء اسم يوسف عليه السلام في الآية الكريمة الرّابعة والثلاثين كما جاء في سورة الأنعام في الآية الكريمة الرّابعة والثمانين ، ووراء ذلك جاء الاسم الكريم في سورة يوسف وحدها.

١٦ — يتخاصم أهل النّار في النّار ، ويتحاورون مع خزنة جهنم كما يتجلّى في الآيات الكريمات من السّابعة والأربعين حتى الخمسين والآيات الكريمات من الثالثة والسبعين حتى السادسة والسبعين.

١٧ – مـــن سمات الكافرين في كلّ زمان ومكان المجادلة في آيات الله تعالى بالباطل كمـــا يبدو من الآيات الكريمات الرّابعة ، والخامسة ، والخامسة والثلاثين ، والسّادسة والخمسين ، والتّاسعة والستين.

١٨– بعد هذه الجولة الواسعة مع سورة غافر المكيّة الكريمة يمكن أن نومئ بإيجاز إلى وحدة السّورة الكريمة عضويّاً أو موضوعيّا .

تـــبدأ السّورة الكريمة بالحرفين المقطّعين : ((حم)) وتنتصر فوراً للقرآن الكريم الذي أنزله الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوبة شديد العقاب ذو القدرة والقوّة لا إلـــه إلاّ هو إليه المصير. وهكذا تنص السّورة من بدايتها على التوحيد أهمّ أهداف هذا الكتاب العزيز. وبما أنّ كفار مكّة جادلوا المصطفى ﷺ في هذا الكتاب العزيز بالباطل فإنّ السياق يصف الباعث لهم على ذلك وهو الكفر ، ويسلّي المصطفى ﷺ . إنّ تَقلّب الّذيـــن كفروا في البلاد ليس دليل رضا الله تعالى عنهم ولكنّه استدراجٌ لهم. وهم إن لم يتوبوا ويؤمنوا سيكون مصيرهم مصير قوم نوحٍ والأمم التي تحزّبت على الكفر بعدهم ، وهمّت أن تأخذ رسول الله تعالى إليها فتقتله ، وجادلت بالباطل لتدحض الحقّ فأخذهم الله تعـــالى بـــالعذاب الشـــديد والعقاب الأكيد. وكما وجبت كلمة الله تعالى على الكافرين السّابقين بدخول النّار حقّت على اللاّحقين.

والعجيـــب في كفّـــار مكـــة ومن شاكلهم أنّهم يصرّون على كفرهم وعنادهم وانعـــزالهم عن المسبّحين بحمد الله تعالى المؤمنين . إنّ الكون كلّه يسبّح بحمد الله تعالى ولكن لانفقه نحن تسبيحهم.

وإنّ الذين يحملون العرش من الملائكة ومن حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم جلّ وعلا ويؤمنون به ويسألون عزّ وجلّ أن يغفر ذنوب الذين آمنوا من البشر ويقولون : يا ربّـــنا لقـــد وسعت كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للمؤمنين الذين تابوا و أنابوا واتبعوا

سبيلك دين الاسلام ، وقهم عذاب جهنّم . يا ربنا وأدخلهم جنّات الإقامة الّدائمة التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنّك أنت العزيز في ملكك الحكيم في صنعك واصرف عنهم السيّئات . إنّ الّذي تصرف عنه عذاب السيّئات يوم القيامة قد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم حقّا.

إنّ واجب الكافرين أن يتحوّلوا إلى فريق المؤمنين وأن يسبّحوا بحمد ربّهم عزّ وجل كي تستغفر لهم الملائكة وتدعو لهم وتجاه إصرار الكافرين على كفرهم وشركهم يخوفهم السياق عذاب يوم القيامة وقد دخلوا نار جهنم وتقول لهم : لبغض الله تعالى الشديد لكم في الحياة الدنيا إذ تُدْعون إلى الإيمان فتكفرون أشدّ من بغضكم اليوم أنفسكم وأنتم تتقلبون في نار جهنم.

ويلجأ الكافرون في النّار إلى لطف القول بين يدي طلبهم المرفوض بإعادتهم إلى الحياة الّدنيا كي يعملوا صالحاً ، قالوا يا ربّنا لقد أمتّنا اثنتين في الأصلاب وفي الحياة الّدنيا وأحييتنا اثنتين في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ، نعترف اليوم بكلّ هذا ونعترف بذنوبنا وتقصيرنا في جنبك فهل من سبيلٍ إلى الخروج من النّار والعودة إلى الحياة الدنيا.

يُرفض طلب الكافرين ويبين السبب الذي يعرفونه وهو أنه إذا دُعِي الله تعالى وحده لا شريك له كفروا ، وإن يشرك به يباركوا الشرك، فالحكم يوم القيامة لله تعالى العليّ الكبير.

وبعد التّرهيب يجيء الترغيب ، إن الله تعالى وحده دون سواه هو الذي يُري عباده آياته البيّنات ويترّل من السماء رزقاً في هيئة الماء الذي جعل عزّ وجلّ منه كلّ شيءٍ حيّ . إن الذي يتعظ هو الذي يعود إلى الله تعالى فعلاً . فادعوا الله تعالى يا أيّها المؤمنون مخلصين له عزّ وجلّ الدين والعبادة ولو كره الكافرون .

إنه جلّ وعلا رفيع الدرجات ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى ذو العرش العظيم، يُلقـــي الوحي على من يشاء من عباده ، وفي مقدمة الوحي القرآن الكريم، وفي مقدمة المصطفين الأخيار محمد بن عبد الله ﷺ ، ومن مهمة الرسل إنذار الكافرين بيوم القيامة الـــذي يبرز فيه الكافرون في العراء وينكثون في الفضاء ، وكما لم تخف على الله تعالى شـــخوص الكافرين لم يخف عليه شيء من نوايا الكافرين وأعمالهم. ويوم القيامة ينادي الحـــق جـــلّ وعلا : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ويجيب عزّ وجلّ حيث لامجيب : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ ويكون التّرهيب بعد التّرغيب. في يوم القيامة تُجْزى كلّ نفسٍ بمـــا كسبت ولا تُظلَم شيئاً بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة. إن الله تعالى سريع الحساب، فحساب الخلائق جميعاً كحساب نفسٍ واحدة.

وأنذر يا محمّد مشركي قومك يوم القيامة إذ القلوب من الخوف لدى الحناجر كاظمين غمّهم وهمّهم، فلا حياة هنيّة، ولا ميتة سويّة ما للمشركين من صديقٍ حميم، ولا شفيعٍ تُقْبل شفاعته، لأنّ الشّفاعة لاتكون إلاّ لمن نطق في الدّنيا بشهادة التّوحيد وآمن.

وكما خان المشركون الأمانة فأشركوا كانت الخيانة ملء جفونهم، والغشّ ملء صدورهم. إنّ الله تعالى الحق قضى بالحق فساق الكافرين إلى جهنم جماعات، وتأكد للمشركين عجز الآلهة المزعومة إن الله تعالى هو دائماً وأبداً السّميع لكلّ صوت البصير بكلّ شيء.

ويصرّ الكافرون على شركهم وعنادهم فينذرون ويطلب منهم أخذ العبرة ممّا حل مـــن عذابٍ بالكافرين السّابقين. أغَفل كفّار مكّة ولم يسيروا في الأرض فينظروا بعين البصـــر والبصيرة كيف كان عاقبة المكذّبين السابقين الّذين كانوا أشدّ منهم قوّة وأكثر آثاراً في الأرض فأخذهم الله تعالى بذنوبهم وما كان لهم من عذاب الله تعالى من مانع. ذلـــك العذاب بسبب أنّهم كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البيّنات فكفروا فأخذهم الله تعالى بأليم العذاب وشديد العقاب.

وكما تؤخذ العبرة من الآثار الشّواخص تؤخذ من الأنباء الّتي تسير بها الرّكبان. وجرياً على العادة الغالبة في القرآن الكريم يتحوّل الحديث إلى موسى عليه السلام، بسبب أوجه الشّبه الكثيرة بين ملابسات الدّعوتين الموسويّة والمحمّديّة. لقد أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام بآياته التّسع البيّنات ومعجزاته الواضحات والسّلطان المبين والبرهان الواضح على صدقه عليه الصّلاة والسّلام. لقد أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام إلى فرعون الطّاغي ووزيره هامان الباغي وقارون الإسرائيلي الّذي بغى على قومه بسبب الكنوز الّتي خوّله الله تعالى إياها ولم يشكر الله تعالى عليها. لقد قال فرعون وملؤه الكافرون إنّ موسى ساحرٌ يقلب العصا حيّة، كذّابٌ في زعمه أنّ الله تعالى قد أرسله. فلمّا جاءهم موسى عليه السّلام بالحقّ من عنده عزّ وجلّ قال الطّغاة اقتلوا أبناء الّذين آمنوا معه من الذّكور لإهانتهم وتقليل عددهم، واتركوا البنات حتّى يبلغن مبلغ النّساء لأجل الخدمة. إنّ كيد الكافرين في خسران. ولم يكتف فرعون الطّاغي بذلك بل قال لقومه الّذين وجدهم خفاف العقول فأطاعوه : ذروني أقتل موسى وليدع ربّه الّذي يزعم أنّه أرسله كي ينقذه. ويتحوّل فرعون الطّاغية واعظاً، فهو يخاف من موسى أن يبدّل دينهم ويحملهم على عبادة الله تعالى وحده، أو أن يظهر في الأرض الفساد بصرفهم عن عبادة فرعون إلى عبادة الله تعالى ربّ العالمين! ويلجأ موسى عليه السّلام إلى الله تعالى ربّه وربّ فرعون وملئه ربّ العالمين من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب، وعلى رأسهم فرعون الطّاغية.

وشاء الحقّ جلّ وعلا أن يجري الحقّ الّذي أرسل به موسى عليه السّلام الّذي كان غائباً على لسان رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه بموسى عليه السّلام ويُظَنّ أنّه ليس في لسانه العقدة الّتي في لسان موسى عليه السّلام. وكأنّ هذا الرجل قد أنطقه الله تعالى بكلّ ما يريد موسى عليه السلام أن ينطق به ويبلّغ به رسالة ربه عزّ وجلّ. وبهذا

يكـــون هذا الرّجل المؤمن واحداً من جند الله تعالى الّذين لا يعلمهم إلاّ هو عزّ وجلّ. ويصـــحّ أن يكـــون هذا المؤمن رمزاً للدّاعية المؤمن من أتباع النّبيّين على مرّ العصور، ويكاد يكـــون الحديث عن هذا المؤمن في سورة غافر أطول من أيّ حديثٍ في القرآن الكريم عن أي مؤمنٍ داعٍ من أتباع النّبيّين عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين.

إنّ الرّجل المؤمن ينكر على فرعون وملئه أن يقتلوا رجلاً بسبب أن يقول إنّ ربّي الله تعالى الّذي لا إله إلاّ هو. وقد جاءكم بالآيات البيّنات والمعجزات الواضحات الّتي تحدّاكـــم بهـــا دليل صدقه. وإن يكُ كاذباً فعليه وبال كذبه. ويلاحظ أنّ هذا الرجل الحكـــيم يقدّم احتمال الكذب كي يدغدغ به عواطف المخاطبين الّذين يتمنّون كذب موسى عليه السّلام وكي يتحاشى إثارة حفيظتهم ضدّ موسى عليه السّلام وضدّه. وإن يـــك موسى صادقاً يُصبْكم بعض العذاب الّذي يعدكم به إن كذبتموه. إنّ الله تعالى لا يهدي من هو مسرفٌ في كذبه بنسبة الشّريك إلى الله تعالى كفرعون وملئه.

ويتكرّر على لسان الدّاعية الحكيم ستّ مرات القول: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ تعبيراً عن حبّه لقومه واحترامه لهم وحرصه على نجاتهم من عذاب الله تعالى وعلى عدم إثارة حفيظتهم. يا قوم لكم اليوم في الحياة الدنيا الملك ظاهرين في الأرض على بني إسرائيل والمستضعفين في الأرض. فمن ينصرنا من عذاب الله تعالى إن جاءنا في الأولى والآخرة.

قـــال فرعون الطّاغية ما أريكم أيّها الملأ إلاّ ما أرى من الرّأي السّديد بقتل موسى وما أهديكم إلاّ سبيل الرّشاد وكَذَب.

وحذّر المؤمن فرعون وملأه أن يكون مصيرهم مصير المكذّبين السّابقين كقوم نوحٍ وعـــادٍ وثمـــود والذّين من بعدهم من المكذّبين. والله تعالى لا يريد ظلماً للعباد بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة. ويا قوم إنّي أخاف عليكم يوم القيامة الّذي يكثر فيه نداء بعض النّـــاس بعضاً وقت الحساب وبعده. يوم تولّون مدبرين من مكان الحساب إلى الجنّة أو

النّار. ليس لكم أيّها الكافرون من عاصمٍ من عذاب الله تعالى. وهكذا يعلن المؤمن إيمانه بيوم القيامة ويريد من الآخرين أن يؤمنوا مثله ويعملوا من أجل ذلك اليوم العظيم. ومن يضلل الله تعالى فماله من هاد يرشده إلى طريق الهدى.

والعجيب في القوم أنّهم يشبهون آباءهم وأجدادهم برفض دعوة الحقّ. لقد رفض الأجداد دعوة يوسف عليه السّلام لهم إلى دين الإسلام، وبعد موته عليه السّلام تمنّوا ألاّ يبعث الله تعالى من بعده رسولاً. وهؤلاء الأحفاد ينفّذون أمنيّة الأجداد، فيقفون من موسى عليه السّلام ذات الموقف من يوسف عليه السلام. وكما أضلّ الله تعالى الأجداد المشركين الشّاكّين في دين الله تعالى أضلّ الأحفاد. وإنّ السّابقين واللاّحقين يجادلون في آيات الله تعالى بغير برهان أتاهم من الله تعالى، لذا كبر مقتهم عند الله تعالى وعند الّذين آمنوا. وفي مثل هذه الطّريقة يطبع الله تعالى على قلب كلّ متكبرٍ جبّار. ولا شكّ أنّ هذه هي صفات كفّار مكّة وفي كلّ ذلك تسليةٌ غير مباشرةٍ للمصطفى ﷺ والمؤمنين.

ويتمادى فرعون الطّاغية في غيّه، ويطلب من وزيره هامان أن يُعْلي له بناءً لعلّه يبلغ طرق السّماوات فيطلع إلى إله موسى. إنّه يظنّ أنّ موسى عليه السلام كاذب. وإنّ فرعون هو الكاذب على الحقيقة، لأنّه يقول غير ما يعتقد. وهكذا زيّن الحقّ جلّ وعلا لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن سبيل الهدى. وما مكر فرعون وكيده إلاّ في خسران.

ويستمرّ الرّجل المؤمن في تبليغ رسالة الله تعالى الّتي أرسل بها موسى عليه السّلام. إنّه يأمر قومه بأن يتّبعوه كي يهديهم سبيل الرّشاد، أي بأن يتركوا فرعون الطّاغية. ويبيّن المؤمن للقوم أنّ الحياة الدّنيا متاعٌ زائل، وأنّ الآخرة هي دار الاستقرار في الجنّة أو النّار، وهم بعد ذلك بالخيار. من عمل سيّئة دخل النّار، ومن عمل صالحاً دخل الجنّة الّتي يُرْزق فيها بغير حساب.

وكأنّ القوم أصرّوا على كفرهم ودعوه إلى الكفر فأنكر عليهم أن يدعوهم إلى النّجاة وهم في المقابل يدعونه إلى النّار. إنهم يدعونه إلى الكفر بالله تعالى والإشراك به

عــزّ وجــلّ وهو يدعوهم إلى العزيز الغفّار. لا شكّ أنّ الآلهة المزعومة الّتي يدعونه إلى عــبادتها لــيس لها قدرةٌ على إجابة من دعاها في الدّنيا والآخرة إنّ مردّ الجميع إلى الله تعالى، وإنّ المشركين هم أصحاب النّار.

وهكذا يكون حديث المؤمن عن يوم القيامة مستفيضاً.

ويهدّدهم بأنّهم سوف يذكرون بعد فوات الأوان ما يقول لهم الآن .

أما وقد قال المؤمن كلّ ما ينبغي أن يقوله الدّاعي إلى الله تعالى وينطق به من كلمة الحقّ أمام السّلطان الجائر، وفي ذلك من الخطورة ما فيه، فقد فوّض المؤمن أمره إلى الله تعــالى البصــير بالعــباد. لقد وقى الحقّ جلّ وعلا المؤمن سيّئات ما مكروا به من قتلٍ وعــذاب، وحلّ بفرعون وقومه سوء العذاب. لقد أغرقهم الله تعالى في الحياة الدنيا في المــاء المِلْــح، وأحرقهم في الحياة الأخرى بالنّار، الّتي ينالون فيها أشّد العذاب، وبينهما عذاب القبر، فثمّة النّار الّتي يعرضون عليها غدواً وعشيّا، صباحاً ومساءً.

ولا شــكّ أنّ في ذكــر قصّــة هذا المؤمن تسلية لكلٍّ من المصطفى ﷺ والمؤمنين وبشارةً بأنّ العاقبة للمتّقين.

وإنّ الــنّار الّتي يصلى فرعون وقومه حرّها في القبر ويوم القيامة رشّحت للحديث عن عذاب الكافرين عموماً في النار يوم القيامة.

أنــذر يــا محمّــد قومــك يوم الآزفة يوم القيامة الوشيك الوقوع، وأنذرهم يوم يتحاجّون في النّار ويتخاصمون يوم التّناد فيقول الأتباع الضّعفاء للمستكبرين المتبوعين إنّا كنّا لكم أذناباً فهل أنتم حاملون عنا قسطاً من نار جهنّم. قال المتبوعون المستكبرون إنّــا جمــيعاً في الــنّار، وقد حكم الله تعالى بين العباد، فأعطى كلاًّ منّا من العذاب ما يستحقّه ويكفيه، فلا نستطيع أن نحمل عنكم شيئاً.

لجــأ أهل النّار إلى خزنتها وطلبوا منهم أن يدعوا ربّهم عزّ وجلّ كي يخفّف عنهم مــن العذاب مقدار يوم واحدٍ من أيام الدّنيا. قال خزنة جهنّم لهم على سبيل التّوبيخ:

أتركتكم رسلكم ولم تك تأتيكم بالآيات البيّنات ! قالوا : بلى قد أتونا بالآيات البينات ولكن غلبت علينا شقوتنا. قالوا فادعوا الله تعالى أنتم فإنا لا ندعو للمشركين. وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلالٍ وذهابٍ أدراج الرّياح.

ثمّ تكون التّسلية المباشرة للمصطفى ﷺ . إنّ الله تعالى يعد ووعده الحقّ بأنّه ينصر رسله في الحياة الدّنيا ويوم القيامة الّذي لا ينفع الظالمين فيه معذرتهم، ولهم الطّرد من رحمة الله تعالى، وسوء العذاب في نار جهنّم .

وكما آتيناك يا محمّد القرآن الكريم وأورثنا قومك الكتاب العزيز آتينا موسى النّور، وأورثنا بني إسرائيل التّوراة هدىً وموعظةً لأولي العقول السّليمة. فاصبر يا محمّد إنّ وعد الله تعالى بنصرك لحق، واستغفر لذنبك، والمراد أمّته عليه الصلاة والسّلام، وسبّح بحمد ربّك بالعشيّ والإبكار، بالمساء والصّباح وكلّ وقت.

ويظلّ الكافرون يجادلون في آيات الله تعالى بغير دليلٍ من الوحي ولا برهانٍ من الله تعالى. أمّا الباعث لهم على ذلك فهو الكبر الممتلئة به صدورهم، والحسد الّذي تفيض به نفوسهم بسبب الفضل الّذي خصّ الله تعالى به محمّداً ﷺ . إن جدال الحقّ بالباطل لا يبلّغ كفّار مكّة شيئاً من فضل الله تعالى كما لم يبلّغ الكافرين السابقين. وإنّ الباعث لهم على ذلك الشيطان الرّجيم الّذي استحوذ عليهم. فاستعذ يا محمّد من الشيطان الرّجيم واستعذ أيّها المؤمن بالله تعالى السّميع البصير.

ويصرّ الكافرون على الانسياق وراء الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء، ويلفت السّياق انتباههم إلى بعض آيات الله تعالى البيّنات الدّالاّت على القدرة المطلقة للذّات العليّة . إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون هذه الحقيقة أولا يريدون أن يعلموا ؟ وما دام المشركون قد اعترفوا بخلق الله تعالى السّماوات والأرض والنّاس على غير مثالٍ سابق فكيف لا يعترفون بالبعث وخلق الله تعالى الخلق مرّةً أخرى؟ إنّهم عمي البصائر. ولا يستوي أعمى البصيرة والبصير،

ولا يستوي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات والّذين كفروا الّذين يعملون السيّئات. ما أقلّ تذكّر النّاس وأخذ العظة والعبرة.

إن السّاعة لآتيةٌ لاريب فيها ولا شكّ ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون بها فالويل لهم. وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم واعبدوني وحدي دون سواي. إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي ودعائي سيدخلون جهنّم صاغرين.

ويواصل السّياق الحديث عن بعض آيات الله تعالى، عن اللّيل والنّهار، وفضل الله تعالى على النّاس بجعل اللّيل والنّهار يخلف أحدهما الآخر ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون. إنّ الله تعالى هو وحده الّذي خلق كل شيء ، فكيف تُصْرَفون ياكفّار مكّة عن الحقّ إلى الباطل كما صُرف الكافرون السّابقون. والله تعالى جعل الأرض موضع استقراراً للخلق، وجعل السّماء بناءً، وخلقكم أيّها النّاس في أحسن تقويم، ورزقكم من الطّيّبات، ذلكم الله الّذي ربّاكم بنعمه، فتكاثر خير الله تعالى ربّ العالمين. هو الحيّ الّذي لايموت لا إله إلا هو فاعبدوه مخلصين له الدّين. الحمد لله تعالى ربّ العالمين .

ويتمادى المشركون في غيّهم كما تمادى قوم فرعون فدعوا المصطفى ﷺ كي يعبد آلهتهم فيبيّن السّياق على لسان المصطفى ﷺ أنّ الله تعالى قد نهاه أن يعبد الّذين يعبدون من دون الله تعالى وقد جاءته عليه الصّلاة والسّلام الآيات البيّنات الدّالاّت على توحيد الله تعالى، وأنه أُمِر بأن يسلم الله تعالى ربّ العالمين.

ويعود السّياق إلى الحديث عن أطوار خلق الله تعالى للإنسان الّذي يجادل الآن بالباطل. إنّ على الإنسان أن يهتبل الفرصة بالإيمان قبل فوات الأوان. إنّ الله تعالى هو وحده الّذي يحيي ويميت وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

ويتحوّل السّياق إلى تسلية المصطفى ﷺ . إن هؤلاء المشركين قد دخلوا نار جهنّم يوم القيامة فعلاً. ألم تر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إلى قومك الّذين يجادلون في

آيـــات الله تعالى كيف يُصْرفون عن الحقّ إلى الباطل. إنهم الّذين كذّبوا بآيات الكتاب العزيـــز وبالّذي أرسلنا به رسلنا من إيمانٍ بالبعث والعمل في الدّنيا للآخرة انطلاقاً من توحـــيد الله تعالى وإفراده تعالى بالعبادة. إنهم سوف يعلمون وبال أمرهم يوم القيامة إذ الأغـــلال الّـــتي تشدّ أيديهم في أعناقهم والسّلاسل في أرجلهم يسحبون منها في الماء الشّـــديد الغلـــيان، ثم توقد بهم النّار ويكونون حطبها، ثمّ يقال لهم تأنيباً أين ما كنتم تشـــركون من دون الله تعالى من الآلهة الزّائفة؟ قالوا غابوا عنّا وذهبوا وتركونا. بل لم نكـــن ندعو من قبل شيئاً من دون الله تعالى، وكذبوا. وكما أضل الله تعالى الكافرين السّابقين يضلّ اللاّحقين. ذلك المصير الكئيب بسبب أنكم كنتم تفرحون في الحياة الدّنيا بالـــباطل وبغـــير الحقّ، وبسبب أشركم وبطركم. ادخلوا أبواب جهنّم السّبعة خالدين فيها، فبئس مأوى المتكبّرين جهنّم.

وتكون تسلية المصطفى ﷺ بطريقٍ مباشر. فاصبر يا محمّد إنّ وعد الله تعالى بنصرك حـــقّ. فإمّا نرينّك في حياتك بعض الّذي نعدهم فإنّا عليهم مقتدرون، أو نتوفينك فإنّا مـــنهم منـــتقمون وهـــم إلينا راجعون. ولقد أرسلنا يا محمّد رسلاً من قبلك منهم من قصصـــنا عليك لتثبيت فؤادك ومنهم من لم نقصص عليك. وإنّ معجزتك الكبرى هي هـــذا القرآن المجيد. وما كان لرسول أن يأتي بآيةٍ إلاّ بإذن الله. فإذا جاء أمر الله تعالى بهلاكهم حُكِم. بالحقّ، وخسر يوم القيامة المبطلون.

وبعد ذكر مجموعة من الآيات يلاحظ فيها التّدرّج والاتّجاه من الأكبر يتمّ التّحوّل إلى الحديث في آية الأنعام وهي من جنس الحيوان، وآية السّفن وهي من جنس الجماد. وهكـــذا يـــتجلّى التّدرّج ويتأكدّ التّحوّل من الأعلى. إنّ الله تعالى هو الّذي جعل لنا الأنعـــام لنركـــب بعضها وهي الإبل، ومنها نأكل، وهي الإبل والبقر والغنم. ولنا فيها منافع كثيرة، ولتبلغ على الإبل بخاصّة حاجةً في صدورنا بأثقالنا. وعلى الإبل نُحْمَل في

الـــبّر ، وعـــلى السفن في البحر. والله تعالى يُري عباده آياته الّتي لا تُحصى. فأيّ آية يستطيع النّاس أن يجحدوا !

ويأتي في نهاية السّورة الكريمة الإنذار المباشر لكفّار مكّة بالعذاب في الأولى والخزي في الآخرة. أعجز كفّار مكّة فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبـــلهم مـــن الكافـــرين. كانوا أكثر منهم عدداً وأقوى عدّة وأكثر آثاراً من القصور والبيوت والمصانع وما إلى ذلك فما أغنى عنهم ولا صرف عنهم عذاب الله تعالى شيءٌ مـــن ذلك حينما حلّ بهم عذاب الله تعالى بسبب ما كانوا يأتون من آثام. فلمّا جاءتهم رســـلهم بالآيات البيّنات من الله تعالى فرحوا بما عندهم من علمٍ زائفٍ بأنّ الله تعالى لا يبعـــث رســـلاً، وبأنـــه ليس ثمّة بعثٌ ولا جزاء. وحل بالمكذبين العذاب الّذي كانوا يســـتهزئون به ويستعجلونه. فلّما رأوا عذاب الله تعالى قد نزل بساحتهم قالوا آمنّا بالله وحـــده وكفرنا بما كنّا به مشركين من آلهةٍ زائفة، وبذلك أقررنا بتوحيد الألوهيّة كما أقررنا مِنْ قَبْلُ بتوحيد الرّبوبيّة. فلم يك ينفعهم إيمانهم لّما رأوا عذاب الله تعالى بأعينهم فقد فات الأوان. تلك هي سنّة الله تعالى في المكذبين السّابقين، وفي قومك يا محمّد إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً.

وهكذا تأخذ المعاني في السّورة الكريمة برقاب بعض، في طريقةٍ تخلُب اللّبّ وتأسِر القلب، ترضي العقل بفصوص الحكم، وتشبع النّفس بجليل المعنى، وتطرب الأذن بجميل المبنى.

ولعّلنا تبيّنا في السّورة الكريمة ظاهرةً أسلوبيّة، ربّما جاءت في سورة غافر بأكثر من ســـائر سور القرآن الكريم. وهذه الظّاهرة الأسلوبيّة ضربٌ من البلاغة بالحذف، ولكن عـــلى وتيرةٍ واحدة، وعمادها القول : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ وهذه الظّاهرة الأسلوبيّة تجيء في

قول الحق جلّ وعلا[1] : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ وقوله تعالى[6] : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

---

[1] سورة غافر ٦ .
[2] سورة غافر ٣٤ .
[3] سورة غافر ٣٥ .
[4] سورة غافر ٣٧ .
[5] سورة غافر ٦٣ .
[6] سورة غافر ٧٤ .

ثالثاً

سورة فصّلت حتى نهاية

الجزء الرّابع والعشرين

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ
﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ
أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾
فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ
ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا
لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ
هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا

فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ
أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ
فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ
وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ
عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا
مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ
ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ
لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا
كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ
ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا
تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى
ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا
ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ
حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى
ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ
ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ

إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ
عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ
وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

بين يدي التفسير

(١)

" كفّار مكّة يعرضون عن القرآن الكريم والنّبيّ العظيم، ولا يؤمنون بالبعث فويلٌ لهم " .

الآيات (١ - ٨) .

تبدأ سورة فصّلت الكريمة بالحرفين المقطّعين : ﴿ حمٓ ﴾ اللّذين تبدأ بهما سور آل حم السّبع . ويجيء إثر الحرفين المقطّعين الانتصار للقرآن الكريم على الفور. إنّ هذا القرآن الكريم تنزيل من الله تعالى، رحمن الدنيا والآخرة، الّذي وسعت رحمته كلّ شيء وحيّ، الرّحيم بالمؤمنين رحمةً خاصّةً بهم، وهو كتابٌ بُيّنت معاني آياته، وحدّدت مراميه، وعيّنت أحكامه، ووضّحت حِكَمُه. إنّه قرآن عربيٌّ نزل بلسان عربيّ مبيّن لقومٍ يعلمون هذا اللّسان العربيّ ويفهمون معانيه ويدركون مراميه. وهذا الكتاب يبشّر به محمّد ﷺ المؤمنين بالجنّة، وينذر به المشركين بالنّار. والعجيب في أمر مشركي مكّة أنّ أكثرهم يعرضون عن هذا الكتاب العزيز ويأبون عنه، فهم لا يسمعون هذا الكتاب العزيز حِسّاً بسبب حرصهم على الابتعاد عن سماعه، ومعنىً بسبب انصراف قلوبهم عنه.

وقد عبّر كفّار مكّة بصريح اللّفظ عن امتلاء المستقرّ وهو القلوب، بالضّلال ، وعن تعطّل وسيلتي الاتّصال بالقلب مرتّبتين حسب الأهمّيّة في هذه المناسبة، وهما حاستا السّمع والبصر. لقد قال الكافرون بصريح اللّفظ إنّ قلوبهم في أغطيةٍ تحول بينها وبين نور الهدى أن يصل إليها. وفي آذانهم صممٌ عن سماع صوت الحقّ سماع قبول، وعلى أعينهم غشاوةٌ عبّروا عنها بالحجاب الفاصل بينهم وبين محمّد ﷺ، والحجاب بطبعه يحول بين النّور وبين أن يصل إلى هدفه، والمقصود هنا نور الهداية. وبسبب منع

صـــوت الحقّ ونوره من الوصول إلى المستقرّ عميت القلوب الّتي في صدور القوم. وهذا الـــنّوع مـــن عمـــى القلوب هو عمى البصيرة والعياذ بالله. وأكد الكافرون الفرحون بضـــلالهم هـــذه المعـــاني بطلبهم من النّبيّ ﷺ بأن يعمل على دينه دين التوحيد، فإنّهم عاملون على دينهم، دين الشرك! ولا ينقضي العجب من فرح المشركين بشركهم.

ويأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يردّ على المشركين قائلاً : ما أنا إلا بشرٌ مثلكم جنساً وهيئةً وصورة، يوحى إليّ أنّما إلهكم المستحقّ أن يُعْبَد إلهٌ واحدٌ لا شريك لـــه، فاتّجهوا إليه بالتّوحيد، وأخلصوا العبادة له وحده دون سواه، واستغفروه بالتّوبة والإيمان وعمـــل الصّالحات يغفر لكم ذنوبكم. وهلاكٌ أكيدٌ وعذابٌ شديدٌ للمشركين الّذين لا يتصدّقون ولا يؤتون الزّكاة وبالآخرة والبعث والحساب والجزاء هم كافرون ومنكرون وجاحدون.

وفي مقابل هؤلاء المشركين هنالك المؤمنون الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن الكريم إماماً، والّذين عملوا الصّالحات بجوارحهم. إنّ هـــؤلاء لهـــم أجرٌ عند الله تعالى غير منقوص، وثواب غير ممنوع، في الجنّة الّتي عرضها السّماوات والأرض والّتي أعدّها الله تعالى للمتّقين .

(٢)

" خلق الله تعالى السّماوات والأرض في ستّة أيّامٍ فوحّدوه "

الآيات (٩ ـ ١٢)

أصـــرّ كفّار مكّة على كفرهم وإعراضهم عن القرآن الكريم الموحى به من ربّ العـــالمين إلى محمّـــد بن عبد الله ﷺ بشيراً ونذيراً. وتظل رحمة الله تعالى تلاحق عباده

المنحرفين عن سواء السّبيل. إن ربّ العزّة والجلال يأمر حبيبه ﷺ أن يسأل في إنكارٍ وتعّجب كفّار مكّة، فرسان البلاغة وأئمّة البيان الّذين تحدّاهم القرآن فخرس منهم كلّ لسان : أئنكم لتكفرون بالله تعالى ولا توحدّونه، وتنكرون البعث استعظاماً له واستصعاباً، ولا تعظمون الله تعالى حق عظمته وهو عزّ وجلّ الذي خلق الأرض وأوجدها من العدم في يومين اثنين، وتجعلون له أنداداً وشركاء في العبادة. إنّ الّذي فعل ذلك هو الله تعالى ربّ العالمين المستحقّ أن يفرده الخلق بالعبادة وحده دون سواه.

والله تعالى الّذي خلق الأرض من غير دحوٍ في يومين اثنين جعل فيها جبالاً راسيةً كيلا تميد الأرض وتضطرب، راسخة في أعماقها، جاثمةً فوقها، وبارك فيها بالمياه والزروع والضّروع، وقدّر فيها أرزاقها، فما من دابّةٍ في الأرض إلاّ على الله تعالى رزقها. كل ذلك قد تَمّ في يومين اثنين آخرين تمام أربعة أيّام، بالتّمام والكمال، ويستوي في العلم بهذه الحقيقة كلّ من سأل.

وبعد خلق الله تعالى الأرض وقبل دحوها قصد عزّ وجلّ إلى خلق السّماء وهي دخانٌ فقال لها والأرض ائتيا أنتما ومن فيكما طائعتين أو مكرهتين قالتا أتينا يا ربّنا نحن ومن فينا طائعين لك مذعنين لمشيئتك. ودليلاً من الأرض على الطّاعة يدحوها الحقّ جلّ وعلا، ويجعل فيها الجبال الرّاسخة ويقدر فيها أرزاقها.

صيّر الله تعالى السّماء سبع سماوات طباقاً في يومين اثنين أخيرين تمام ستة أيّام، وأوحى عزّ وجلّ في كلّ سماءٍ أمرها، وهّيأها للقيام بالدّور المنوط بها، وزيّن عزّ وجلّ السّماء الدّنيا بزينة الكواكب، وحفظها حفظاً بالشّهب من كلّ شيطان يريد أن يسترق السّمع من الملائكة، ويوحي به إلى شياطين الإنس، كي يضيف الكاهن إلى ما سرق الشيطان من الملائكة وأوصله إليه أَلْف كَذْبة، كما جاء في الحديث الصّحيح. ذلك

الصُّنع تقدير الله تعالى العزيز في ملكه، وتدبير الحكيم في صنعه، سبحانه، لا ربّ غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه.

(٣)

" صاعقةٌ أَخَذَت عاداً وثمود "

الآيات (١٣ - ١٨)

إن أصرّ كفّار مكّة على إعراضهم عن دعوة الحقّ، وقد أصرّوا فعلاً على الإعراض وعلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى، فأنذرهم يا محمّد وقل لهم : أنذرتكم صاعقةً تهلككم مثل الصّاعقة الّتي أهلكت عاداً وثمود. حين جاءتهم الرّسل يتبع بعضهم بعضا متوالين، يقبلون عليهم ويدبرون عنهم، وهم مصرّون على رفض دعوة الرّسل لهم أن يعبدوا الله تعالى وحده دون سواه. قالت كلٌّ من عادٍ وثمود للرّسل لو شاء الله تعالى أن يبعث رسلاً لأنزل ملائكةً و لم يرسل بشراً مثلنا، فإنّا بما أُرْسلتم به أيّها الرّسل كافرون.

فأمّا عادٌ قوم هودٍ عليه السّلام فقد استكبروا في الأرض بغير الحقّ واستنكفوا عن عبادة الله تعالى، وقالوا لا أحد أشدُّ منا قوّة ! أعموا و لم يروا أنّ الله تعالى الّذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة؟ ومع ذلك هم أصرّوا على إعراضهم وكانوا بآيات الله تعالى يجحدون. لقد استحقّوا أن يأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر.

وأمّا ثمود قوم صالح عليه السّلام فقد أرشدناهم إلى طريق الهدى فاستحبوا العمى على الهدى والكفر على الإيمان، فأخذتهم صاعقة العذاب المهين، بسبب ما كانوا يكسبون من آثام.

وقد نجى الله تعالى كلاًّ من هودٍ وصالحٍ عليهما السّلام والّذين آمنوا معهما، وكانوا يتّقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي.